العربية تاريخانياً

المقاييس اللغوية في السياقات الاجتماعية

د. قصي الحسين

الجامعة اللبنانية

لبنان

تمهيد :

ينطلق هذا البحث من العلاقات التي تنشأ بين ظاهرات اللغة كلغة، وبين الظواهر الاجتماعية التي تتدرج فيها، وذلك على قاعدة تأثر اللغة، أية لغة، بالعادات والتقاليد، وبالنظام الاجتماعي العام الذي ينشأ في زمان ومكان معينين. ولا غرو، فجوهر الإنسان، منذ أن وجدت اللغة، ووجدت الحياة الاجتماعية، إنما يكمن في لغته وفي حياته الاجتماعية، سواء بسواء. وإذا كان النظر في هذه العلاقات التاريخانية بين اللغة نشأة وتطوراً، وبين سلوكها إندراجاً اجتماعياً، قديماً قدم العلم نفسه، غير أنه لم يستو منهجاً، إلا حين ظهر علم اللغة الجديد، الذي يعرف بـ " علم اللغة الاجتماعي Sociolingustic "[١] .

علم اللغة الجديد :

يعود تاريخ ظهور هذا العلم، إلى القرن الثامن عشر، على يد مجموعة من العلماء الغربيين أمثال يوهان "فو تغيرد" و "هلدر" و "جينس" . إذ رأى "هلدر" أن اللغة ذات شكل داخلي خاص، وهي منظمة للعالم الخارجي للجماعة الناطقة [٢] . ومفهوم الجماعة اللغوية عند "هلدر" يتضمن بالتالي مفهوم الأمة . أما "جينس" فقد نشر عام ١٧٩٤ كتابه الموسوم بـ"المقارنة بين اللغات " مع تقديم فلسفي ونقدي لأربع عشرة لغة قديمة وحديثة، من أجل أن يثبت أن طبيعة الإنسان الفكرية والأخلاقية، إنما تتجلى كاملة في اللغة على نحو معين. مثل رهافة الحس التي تظهر في اليونانية والفرنسية، والنزعة الفلسفية الواضحة في اللغة الألمانية . أما "كوندياك" فيقول : "لا يستطيع البشر تبادل الإشارات، ما لم يكونوا مجتمعين " . كما يقول :" إن اللغة هي أوضح مثل للعلاقات التي تكوّنها بصورة إرادية "[٣] . وفي القرن التاسع عشر، ظهر غليوم دي همبولت (١٧٦٧ – ١٨٣٥) وهو من كبار مفكري الألمان، فوجد أن التطور الذي قطعته اللغة الألمانية، إنما كان يصاحب تطوراً آخر في المجتمع . وأن لكل لغة بنية خاصة بها . وأن كل لغة تعكس نوعية التفكير عند الشعب الذي يعبّر بها. وقد قاده ذلك إلى اكتشاف المنهج الذي يربط بين اللغة والوطن . إذ لكل وطن لغة تعبر عنه. وإذا أراد الباحثون دراسة تاريخ الأوطان، فلا بد لهم من الإنكباب أولاً بأول على دراسة تاريخ اللغات التي تعود لكل منها .

فاللغة بحسب "همبولت" هي الوسيلة التي يتكوّن بها التفكير. أي أنها تعبر عن الروح القومية وتكونها في كل خصائصها. كما أنها تشير بدقة إلى ما تنفرد به جماعة من الجماعات. فتنوع اللغات دليل أكيد على تنوع العقليات. وبسبب من ذلك ربما، نشأت أهمية التحليل لعضوية كل لغة، حتى تتم المقارنة بين بنياتها وبنيات اللغات الأخرى من أجل الوقوف على الفروقات والمقاييس المختلفة فيما بينها. وفي مكان آخر، يبرز "همبولت" ما يعرف بـ"قطبيات اللغة"، بمعنى أن اللغة إنتاج فردي واجتماعي في آن واحد. وهي شكل ومضمون. وهي آلة وموضوع. وهي نظام ثابت وسيرورة متطورة. وهي ظاهرة موضوعية، وحقيقة ذاتية (٤).

ولا شك أن جميع الدراسات التي تناولت مقاييس اللغة في ذاتها، ومقاييس اللغة في سلوكها داخل المجتمعات، إنما كانت تلّح على الدراسة الدقيقة للظواهر اللغوية، وتركيز الاهتمام من أجل البحث في اللهجات المحلية والاختلافات الكثيرة بينها. وقد أدى ذلك عن قصد أو عن غير قصد، إلى الاهتمام بدراسة التوزيع الجغرافي للسمات اللغوية، وبالتالي إلى رسم الحدود والخرائط لها. كما فعل "جورج فينكر" في ألمانيا عام ١٨٧٦، وكما فعل أيضاً جول جيرون في فرنسا، دون أن ننسى مساهمات هاتزكوارث في أميركا سنة ١٩٣٠، على هذا الصعيد، ونشاطات هارولد أورتن في بريطانيا بين عامي (١٩٥٠ -١٩٧٨). وهذا ما أفسح في المجال لفريق من المستشرقين، أن ينهضوا رصد اللهجات العربية العامية في مناطق مختلفة من العالم العربي، ولوضع الخرائط اللغوية كما فعل "كانينو – Kanino " في دراسته القيمة للهجات كل من مملكة تدمر ومنطقة حوران (٥).

اللغة مؤسسة اجتماعية :

إن النظرة المتجددة للغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية، أخذت سياقها للاتساع والشمولية مع ظهور نظرية "ف.دي سوسور" (١٨٥٧ – ١٩١٣) وكتابه الهام :" منهج علم اللغويات العامة – Cours de Lingaistique Général " . إذ وجد أن اللغة أساساً، هي ظاهرة اجتماعية، يجب أن تدرس في ضوء علاقاتها بالمتحدثين بها ومشاعرهم النفسية. إنها دارة تشمل المسموع والملفوظ والمتصدر. وهي تحرّك قسماً نفسياً، وآخر وظيفياً. إنها تستمد قاعدتها من ذاتها ... وجميع المؤثرات في اللغة، ترجع إلى المجتمع والظواهر الاجتماعية. وهذا المفهوم لا يختلف اختلافاً بيناً عما نادى به "همبولت" من

قبل، غير أن "سوسور"، ذهب في بحثه أبعد من ذلك، إذ قاده وضع اللغة في سياقاتها الاجتماعية إلى تأكيد حقيقتين أساسيتين هما : التفريق بين اللغة والكلام من جهة، ومفهوم النظام اللغوي من جهة ثانية (٦) .

فاللغة بحسب "سوسور" عامة، والكلام فردي . ونحن عندما نترجم من لغة إلى لغة، لا نترجم الكلام بل نترجم اللغة . والعربية يكمن أن تترجم إلى أية لغة شئنا، ولكن لا يمكن ترجمة كلام كل فرد من الأفراد . لأن اللغة قانون عام اتفاقي، قائم على أعراف دأب الناس على استعمالها منذ القدم، فأصبحت لغة . والكلام يختلف من فرد إلى فرد . وهو يتحدد باستعمال الجهاز الصوتي وفيزيولوجية الأفراد في التعبير عن مكونات نفوسهم مما يجعل له خصوصية معينة يستحيل علينا ترجمتها . كذلك الأمر، فإن اللغة نظام تشترك فيه المجموعة الناطقة، فتضع مثلاً قانوناً للدوال/الرموز . وهذا النظام اللغوي الخاص هو الذي يتصرف بموجب قوانين لتحريك حياة الدوال اللغوية، والتي تسمح بالتعبير من خلال إرسال ما تحتاجه المجموعة الناطقة في شؤونها وأنشطتها الاجتماعية (٧) .

إن المدرسة الأنتربولوجية اللغوية ومن أشهر رجالها "أدوار سابير – E. Sapir " (١٨٨٤ – ١٩٤٩) و "بلومفيلد – Bloomfield " (١٨٨٧ – ١٩٤٩) الأميريكيان، رفضت المعطيات اللغوية التي لا تخضع للملاحظة المباشرة . وتتلخص نظريتها بأن اللغة سلوك مادي . بل هي لحاء سلوك يجب أن يخضع للمقاييس المادية . وقد ذهب سابير نفسه في كتابه "اللغة" (١٦٢١) إلى البرهنة على أن نظرة الإنسان إلى العالم الخارجي، إنما ترتبط بلغته . ثم تابعه تلميذه "بنجامين لي فورف" في هذا الاتجاه، فظهرت النظرية التي عرفت بـ فرضية "سابير -فورف" والتي تقول إن اللغة التي اعتاد الإنسان التحدث بها، تؤثر تأثيراً مباشراً في طريقة تفكيره وسلوكه . وإن الفروق اللغوية، إنما تعود إلى البنية العقلية المختلفة لدى الأفراد والجماعات، إذ لاحظ "سابير" في إحدى قبائل أميركا، وفي مدينة كاليفورنيا أن الرجال والنساء يستعملون أشكالاً نحوية ومعجمية متغيرة، بما يتفق وعقليات هذه المجموعات (٨) .

ولعل أهم ما تفيدنا به المدرسة الأميركية هو إقرارها بـ "مبدأ الشيوع اللغوي" والذي يقرّ بأن اللغة الصحيحة هي التي يتحدثها الناس، لا اللغة التي يعتقد شخص آخر أنه يتحتم عليهم أن يتحدثوها . فشيوع الاستعمال له قدسية تتضاءل بجانبها قوانين

النحويين . وأن لغة العامة واللهجات المحلية، لها الأهمية العملية التي تتمتع بها الفصحى . وعلى هذا الأساس ينبغي اعتبار اللغات على مستوى واحد، بصرف النظر عن انتشارها وعما ساهم به المتحدثون بها من أعمال في سبيل تقدم الحضارة البشرية (٨) .

إلى ذلك قدم "نيكولاي مار" تحليلاً مستفيضاً عن اللغة باعتبارها بنية اجتماعية فوقية، يتصل تطورها بالقفزات الجدلية للتغيرات اللغوية . أما نتائج هذه القفزات اللغوية، فيجب أن تأخذ بعين الاعتبار التكوين الاجتماعي والاقتصادي، وما يلابسه من متغيرات، تؤثر تأثيراً حاسماً وسريعاً في اللغة . وبرأيه أن التغيرات التي تقع في البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي، تحتّم زوال البناء اللغوي القديم وتغييره جذرياً لأن اللغة هي في الأساس ظاهرة اجتماعية طبقية (٩) . ولقد نقضت هذه الآراء فيما بعد، باعتبار أن اللغة ليست نتائج فترة زمنية محددة، وإنما هي نتاج المجرى العام لتاريخ المجتمع في قرون عديدة . وهي ليست من صنع طبقة بعينها، بل هي صنع المجتمع عموماً، بكل طبقاته، ونتاج جهود مئات الأجيال . وقد وجدت لا لسدّ حاجات طبقة معينة، وإنما لسدّ حاجات كل المجتمع بكل طبقاته . وقد وضعت لغة مشتركة لكل الشعب . أما دورها الوظيفي فهو للتواصل بين أبناء الأمة عموماً . فإن هي ساندت فئة اجتماعية على حساب الفئات الاجتماعية الأخرى، فقدت صفتها في كونها وسيلة التعامل بين سكان المجتمع الواحد، وغدت لغةً خاصةً لفئة معينة من المجتمع، فتأخذ بالانحطاط والزوال (١٠) .

أداة تواصل :

ويمكن أن ينسحب ذلك على التطور اللاحق من لغة العشيرة إلى لغة القبائل، ومن لغة القبائل إلى لغة القوميات، ومن لغة القوميات إلى اللغات الوطنية . فاللغة في كل مراحل التطور، وفي كل مكان، كانت عبارة عن أداة للتواصل بين سكان المجتمع . لغة واحدة مشتركة لذلك المجتمع، تخدم أفراده على قدم المساواة، بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي . لغة يفهمها كل الناس، سواء كانوا من أعالي القوم أو من أسافلهم . ومن الطبيعي أن يرافقها لهجات ولغات إقليمية، ورطانات وعاميات . غير أنها تبقى خاضعة وتابعة للغة الواحدة المشتركة للقبيلة أو لمجموعة القبائل في الموطن الواحد .

وإذا ما انتقلنا للحديث عن مدرسة "براغ" لمؤسسها جاكبسون (١٩٢٦) بمساعدة تروبتسكوي، فإننا نقف على "نظرية التقابل اللغوي – Constative Language " التي

تعتبر أن اللغات يؤثر بعضها في بعض عن طريق الاتصال الجغرافي والتاريخي، مما يجعلها تتطور معاً بطرق متشابهة . أما العالم البولندي "برونزلو مالينوفسكي " (١٨٨٤ – ١٩٤٢) فقد وضع نظرية تجمع اللغة والمجتمع (لغوية أتنوغرافية)، يرى فيها أن اللغة لم تكن وسيلة فقط للتفاهم والتواصل، فهي حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، وأنها جزء من السلوك الإنساني . وهي ضرب من العمل، وليست أداة عاكسة للفكر . وهو يرى أن العمل الإنساني هو أصل مختلف الظواهر والنظم الاجتماعية . وبناءً لذلك، فإن إيقاعات العمل في وقوعاته على اللغة، هي التي تتسبب في تنويعها . وقد أجرى دراساته على مختلف قبائل استراليا وجزر الهند الغربية، فوجد أن لغة الصيادين تختلف في موسيقاها، عن موسيقى لغة الزراعيين، مستنتجاً " أن الألفاظ تدور في سهولة وخفة مع العمل اليسير، وتتعقد بتعقد العمل " (١١) .

القضايا اللغوية والعلوم الاجتماعية :

فقد انصرف كثير من الباحثين لدراسة القضايا اللغوية في ضوء العلوم الاجتماعية وخصوصاً اتصال علم اللغة بعلوم كثيرة كالجغرافية وعلم السلالات وعلم النفس والإحصاء، مما أدى إلى نشوء فروع لغوية جديدة، لعل أحدثها وأشملها، ما يعرف بـ "علم اللغة الاجتماعي" الذي ظهر إلى جانب علم اللغة الانتروبولوجي وعلم اللغة السوسيولوجي وعلم اللغة الاتنولوجي وعلم اللغة النفسي . وهذا التمايز بين هذه الفروع اللغوية، يرتبط بنزعة هامة، وهي نزعة تكامل المعرفة اللغوية واتساعها موضوعاً ومنهجاً

فالتوغل في طيات اللغة وتحليل وظائفها الإنشائية والجمالية والتعبيرية، إنما يمهّد لبيان العوامل المكونة لكل مسار لغوي، وكل فعل تواصلي كلامي . ناهيك عن الوقوف على الفوارق اللغوية بين الطبقات الاجتماعية وبيان خصائص الرصيد اللغوي لكل منها ومقاييسه التي يشتمل عليها، في أصوله وأسباب تطوره سلباً أو إيجاباً . وهذا ما يؤدي إلى تصنيف الأفراد أو الجماعات حسب ملكاتهم اللغوية من جهة وطبيعة قاموسهم اللغوي من جهة أخرى . مما يمهّد إلى تصوير ووصف السلوكيات الفردية إزاء اللغة، أو إلى وصف استعمالاتها بحسب الأوساط الاجتماعية، والكشف عن مدى تأثر النظام اللغوي بالنظم الاجتماعية. وبكلام آخر : تأثر المقاييس اللغوية، بحركة الأنساق الاجتماعية (١٢) .

فعلم الاجتماع الغوي، كما سائر الفروع اللغوية، إنما يمدّ التحليل اللغوي ببعدٍ يتجاوز علوم الألسنية الحديثة، بسبب ما يستدركه عليها من مسائل كثيرة، مثل إغفاله السياقات الاجتماعية التي تستعمل فيها اللغة . بحيث يظهر تفاعلها مع محيطها. ومثل النظر في العوامل الخارجية التي تؤثر في استعمال اللغة، وخصوصاً منها، ما يتصل بالتشكيل الاجتماعي . فالمتغيرات الاجتماعية كطبقة المتكلم ومركزه وطبيعة الموقف الذي يتكلم فيه، تؤثر حتماً في استعمالات اللغة تأثيراً واضحاً (١٣) .

مثل سائر المجتمعات النامية، يمكن النظر في المجتمعات العربية من زاوية المشكلات اللغوية . إذ نرى كيف تعيش هذه المجتمعات في مناخات العصر المليء بالأحداث وبالتحديات الاستعمارية وبالصراعات الفكرية وبحملات بعض أو أكثر الاستشراق، التي تحاول أن تطمس الشخصية العربية الناهضة، بغرض إيقاف مسيرتها نحو الرقي والاستقلال الفكري والسياسي، وذلك من خلال القضاء على لغتها، وصولاً للقضاء على تراثها وتقاليدها . فاللغة بعامة واللغة العربية بخاصة، كانت ولا تزال محور أصحابها اجتماعياً وفكرياً ووجدانياً .

الإزدواجية والثنائية :

كذلك فإن بعض المجتمعات العربية، إن لم نقل معظمها، إنما تعيش أحد مظهرين لغويين : "الإزدواجية اللغوية – Diaglossio " أو " الثنائية اللغوية – Bilinguelcim " : المظهر الأول قائم بين العربية الفصحى وبين اللهجات أو العاميات، في الأداء اللغوي داخل بعض هذه المجتمعات . وقد برزت هذه المسألة في عصور العربية الأولى . فكانت اللهجات العربية أو العاميات، تمثل ظاهرة طبيعية أنضجها الموقف الاجتماعي المتصل بظاهرة "التطور اللغوي – Evolution "، مما سهل المحافظة على نوعية موحَّدة وموحِّدة داخل المجتمع اللغوي . فمن خلالها، تم العمل الجاد على ردم الهوة بين الفصحى واللهجة في المجتمع الواحد، وذلك من خلال التقريب بين العاميات واللهجات إلى أبعد الحدود، لصالح اللغة المشتركة أو العربية الفصحى .

أما في المظهر الثاني حيث الثنائية اللغوية، فإن الباحث يجد نفسه أمام ظاهرة ذات أبعاد متعددة، وكل بعد منها يكاد يكون متغيراً، إن لجهة الشخص الثنائي اللغة، أو لجهة المجموعة الإنسانية ذات الثنائية اللغوية . فهناك مثلاً الشخص الذي يتحدث إلى

جانب لغته العربية الأم، إما الفرنسية أو الإنكليزية أو أية لغة أخرى، كما أن هناك جماعات وأمم تتحدث العربية إلى جانب " الأمازيغية" أو "الكردية" أو "الأرمنية" . ومن الضروري أن تعمل الشعوب والأمم على الاستقلال اللغوي، كما هي تعمل على الاستقلال السياسي والاقتصادي، من أجل بلورة الشخصية القومية والتي هي المنفذ المفضي إلى الحرية . أما التفريط في ذلك، فقد يؤدي إلى الانحلال والضياع، وخلق الشخصية القلقة . وهذا يتطلب وضع الحلول الكفيلة للمشكلات اللغوية في مثل هذه المجتمعات العربية، بما يعزز من مكانة اللغة العربية القومية الواحدة، من خلال الاستعانة بالمؤسسات التعليمية والثقافية، ومن ضمن إطار اجتماعي كلّي لبناء الكيان الحضاري " فإن اللغة هي الحضارة وإن الحضارة هي اللغة " (١٤) .

اختلاف الألسن :

ولا شك أن مسألة اختلاف الألسن في المجتمعات الإنسانية عموماً والمجتمعات العربية خصوصاً، قديمة قدم هذه المجتمعات نفسها . وهي حقيقة إنسانية واقعة، نجد إشارة واضحة إليها في القرآن الكريم : " ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم . إن في ذلك لآيات للعالمين" (١٥) . وقد بحث العلماء في المقاييس اللغوية الناشئة عن اختلاط اللغات واحتكاكها في السياقات الاجتماعية، بما كان يؤدي أحياناً إلى اختفاء إحدى اللغات مثلاً وسيطرة الأخرى تماماً في البيئة التي كانت تستعمل فيها . بيد أن هذا الاختفاء، قد يترك بعض الآثار في اللغة الغالبة، بحيث تصبح عملية التأثر باللغة القديمة، هي التفسير الصالح لشرح مظاهر التطور الذي أصاب اللغة الجديدة .

ومثل غيرها من اللغات، احتكت "العربية" بلغات كثيرة، فأثرت فيها وتأثرت بها . وقد أصبحت اللغة المسيطرة في بيئات عديدة، كانت تتكلم بلغات أخرى مثل الحميرية في جنوب الجزيرة العربية والفارسية في العراق والبيزنطية في بلاد الشام، والنبطية في مصر واليونانية في بلاد المغرب. وقد عرفت هذه الظاهرة اللغوية الاجتماعية، بظاهرة الاستعراب، خصوصاً بعد تحوّل لسان العرب العاربة في الجنوب عند أهل حمير، إلى لسان العرب المستعربة في نجد والحجاز بعيد انهيار سدّ مأرب. ويعتبر ذلك أول ظاهرة استعراب جماعي، وقعت للعربية في التاريخ القديم.

وبرأينا إن احتكاك اللغة العربية بغيرها من اللغات، كان ضرورة تاريخية، لأنه حمل إليها الكثير من مظاهر التطور التي كانت فيها، هي اللغة المستقبلية، سواء كان ذلك في مجال المفردات، أو في مجال التأثيرات اللغوية البارزة، خصوصاً في لهجات القبائل، والتي كانت تجاور أقواماً من غير العرب . ويقول فندريس في هذا المجال :" إن تطور اللغة المستمر، في معزل عن كل تأثير خارجي، يعدّ أمراً مثالياً، لا يكاد يتحقق في أي لغة، بل على العكس من ذلك، فإن الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات أخرى مجاورة لها، كثيراً ما يلعب دوراً هاماً في التطور اللغوي . ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية " (١٦) .

عربية حمير وعربية القرآن :

إن الحديث عن العربية تاريخانياً، يقتضي منّا الوقوف، على رأي السيوطي في كتابه المزهر حيث يقول : "لغة العرب نوعان : عربية حمير، وهي التي تكلموا بها من عهد "هود" عليه السلام، ومن قبله، وبقي بعضها إلى وقتنا الحاضر، والثانية العربية المحضة التي نزل بها القرآن" (١٧) . والعربية المحضة عند السيوطي هي العربية الفصحى . وهي التي كانت العرب تتحدث بها قبل الإسلام بنحو مئتي عام (١٨) وربما قبل ذلك بكثير . وقد وصلت إلينا هذه اللغة، في صورتين أساسيتين :

١ -في صورة اللغة الأدبية المشتركة، التي نزل بها القرآن الكريم، وصيغت بها الأشعار، ودونت بها الحكم والأمثال وخطبت بها الخطب في الأسواق والمواسم والمجالس .

٢ -في صورة اللهجات العديدة المنسوبة إلى القبائل، مثل لهجة تميم وقيس، أو تلك المنسوبة إلى البيئات العربية مثل لهجة الحجاز ولهجة نجد .

وهذه اللغة العربية "المحضة" بحسب السيوطي، و"الفصحى" بحسب من جاؤوا بعده، من الباحثين، والتي وصلت إلينا في مثل هاتين الصورتين، هي التي تراد بالعربية عند الإطلاق . وربما سميت بالعربية الشمالية أو المضريّة، أو لغة إبني نزار (١٩) .

أما العربية الجنوبية، فهي اللغة السامية أيضاً، والتي استعملها الناس في جنوب الجزيرة العربية، ودوّنوا بها آثارهم منذ القرن التاسع قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي (٢٠) . وليس لهذه اللغة ما يسمى باللغة المشتركة، كما في العربية الفصحى، وإنما تتمثل في النصوص الواردة في مجموعة من اللهجات، أهمها : السبئية والمعينية

والقتبانية والحضرمية، وقد سميت بأسماء الممالك الجنوبية . وأعظم هذه اللهجات هي اللهجة السبئية، بسبب غزارة مادتها اللغوية، إضافة إلى أنها عمّرت أكثر من غيرها . وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، أضاف ملوك سبأ إلى لقبهم ملك ريدان، وأقاموا لهم عاصمة جديدة في ظفار . ثم بدأت دولة حمير تحتل مركز الصدارة وتنافس مملكة سبأ . فكان أن أطلق مصطلح "لغة حمير" على سائر اللهجات التي كانت سائدة في الجنوب . ولا تزال توجد حتى اليوم، بقايا لهذه اللهجات العربية الجنوبية، في بعض المناطق النائية مثل جزيرة سومطرة ومنطقتي الشحر ومهرا [٢٢] .

والعربية الجنوبية وبعدها العربية الفصحى، كما اللغة الحبشية، تنتمي جميعها إلى ما يعرف عند علماء اللغات، بـ المجموعة الجنوبية للغات السامية . وتشترك جميع هذه اللغات بمجموعة من الخصائص اللغوية، مثل ظاهرة جمع التكسير الذي يوجد بكثرة في هذه اللغات، ومثل الاحتفاظ بالحروف التي مخارجها من بين الأسنان، كالتاء والذال والضاد والظاء . غير أن ما بين اللغتين من عناصر الاختلاف فهو كثير، وهذا ما يسوّغ جعل كل منهما لغة قائمة بذاتها . وقد ذهب ابن جني إلى ذلك حين قرر أنه لا يشك في بعد لغة حمير عن لغة ابني نزار (مضر وربيعة)، وأورد للأصمعي، أن رجلاً من العرب الشماليين دخل على ملك ظفار، فقال له الملك : ثب، أي (أجلس بالحميرية)، فوثب الرجل (أي قفز)، فاندقت رجلاه . فضحك الملك وقال : ليست عندنا عربية، من دخل ظفار حمّر . أي تكلم بلسان حمير [٢٣] .

برأينا إن هذه القصة التي رواها الأصمعي، تكاد تتفق مع المقياس الذي يعترف به لدى جمهور اللغويين المحدثين والذي يرى أنه " إذا التقى شخصان، وفهم كل منهما لغة الآخر رغم بعض الاختلاف في النطق والمفردات والتراكيب، فهما يتكلمان لغة واحدة " [٢٤] . أمّا إذا لم يتم التفاهم كما حدث في القصة السابقة، فهما يتكلمان لغتين مختلفتين . وقد وجد ابن جنّي أن العربية الفصحى يمكن لها أن تكون تأثرت بالحميرية، إذ " قد يمكن أن يقع شيء من تلك اللغة (الحميرية) في لغتهم (أي العربية الفصحى)، فيساء الظن فيه بمن سمع منه، وإنمّا هو منقول من تلك اللغة " [٢٥] . واستشهد بما جرى بينه وبين شيخه أبي علي الفارسي، عندما سأله عن لفظ حوريت. قال ابن جني : فخضنا معاً فيه، فلم نحل بطائل منه . فقال : هو من لغة اليمن، ومخالف للغة ابني نزار، فلا يذكر أن يجيء مخالفاً لأمثلتهم .

ذهب ابن خلدون إلى ذلك، فقال في اختلاف العربية الفصحى والحميرية في المجالين الدلالي والصرفي . وعنده أنه تغيّر عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري، وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا، خلافاً لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة . ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضريّة وقوانينها، كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري أنه من القول (في اللسان المضريّ) وليس ذلك بصحيح . فلغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة العرب في كثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها " (٢٦) . ومن العلماء من يرى أن الحميرية، كانت تنقسم إلى مجموعة من اللهجات/اللغات، تختلف عن لغات سائر العرب في الوسط والشمال . يقول ابن منظور :" وحمّر الرجل : تكلّم بكلام حمير . ولهم ألفاظ ولغات، تخالف لغات سائر العرب " (٢٧) .

وفي كتاب الصاحبي لأحمد بن فارس " أن ولد إسماعيل يعيرون ولد قحطان أنهم ليسوا عرباً، ويحتجون عليهم بأن لسانهم الحميرية، وأنهم يسمون اللحية بغير اسمها مع قوله تعالى :" لا تأخذوا بلحيتي ولا برأسي" . ثم يقول :" وليس اختلاف اللغات قادحاً في الأنساب" (٢٨) . علماً أن اختلاف الحميرية عن العربية الفصحى، يشمل كثيراً من أوضاع الكلمات وتصاريفها وحركات إعرابها . وهذا يعني بمفهوم المخالفة أن اللغتين قد اتفقتا في بعض هذه الأوضاع والتصاريف وفي الناحية الصوتية أيضاً . إذ العربية الجنوبية نفسها، لم تكن تشكل واحدة واحدة، وإنما كانت عبارة عن مجموعة من اللهجات/اللغات .

عناصر الإتفاق :

في هذا المجال، ذهب موسكاتي إلى مدى بعيد، في تقدير عناصر الاتفاق بين العربية الجنوبية وعربية مضر، عندما قسم المجموعة الجنوبية الغربية للغات السامية إلى قسمين، يشتمل القسم الأول على العربية الجنوبية، وعلى العربية الشمالية المبكرة المتمثلة في النقوش الصفوية واللحيانية والثمودية، وعلى العربية الفصحى، وعلى اللهجات العربية الحديثة . أما القسم الثاني فهو يشتمل على اللغة الإثيوبية . وبذلك تكون هذه اللغة شقيقة العربيات (٢٩) . مما يمهد إلى القول إن العربية الفصحى، كانت قد التقت عبر العصور المختلفة، ألسناً عديدة فتأثرت بها وأثرت فيها، بدرجات مختلفة . وقد حدث هذا قبل الإسلام بمئات الأعوام، كما بعد الإسلام ومرحلة الفتوح في العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس . دون أن ننسى أن أهل تلك البلاد، كانوا يتحدثون الآرامية

والعبرية والقبطية والبربرية والفارسية والتركية . وقد تركت هذه اللغات المغلوبة آثاراً عديدة في عربية الأقوام المستعربين من السكان المحليين .

لقد تناول علماء اللغة المحدثون، ظاهرة تأثر لغة ما بأخرى، فوجدوا أنها تقع في ثلاثة أشكال. فقد تتأثر اللغة الأصلية أو القديمة باللغة الطارئة أو الجديدة، وأسموا ذلك Superstart أي تأثير الطبقة العليا . كما تتأثر لغة ما بلغة أخرى مجاورة لها بغض النظر عن عنصر القدم، ويطلق على هذا النوع Adestrat أي الطبقة الإضافية، أمّا تأثر اللغة الجديدة باللغة القديمة فتعرف بـ Substrat وهو الذي يعرف بآثار الاستعراب، وتعني الطبقة السفلى .

وكانت اللغة العربية الفصحى، هي اللغة الأصلية حيناً، كما كانت هي اللغة الواحدة أحياناً. فأخذت، كما أعطت. تأثرت بغيرها، وأثرت في غيرها. غير أنها كما يبدو لنا، أعطت أكثر مما أخذت بكثير. وخير مثال على ذلك، التقاء العربية باللغة الفارسية قبل الإسلام وبعده . وربما كانت الفارسية هي الأعلى، غير أن مقاومة العربية كانت شديدة، ويبدو ذلك من الآثار القليلة التي تركتها الفارسية الطارئة على اللغة العربية في المدينة والحيرة. وإلى ذلك يشير الجاحظ :" ألا ترى أن أهل المدينة، لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم . ولذلك يسمون البطيخ: الخربز ويسمون السميط : الرزدق، ويسمون المصوص المزور ... وكذلك أهل الكوفة، فإنهم يسمون المسحاة بال ... ويسمي أهل الكوفة الحوك الباذورج " (٣٠) . أما اللغة العربية فقد تركت في وفادتها على الفارسية آثاراً عظيمة عليها، وكذلك الأمر على اللغة التركية واللغة الأردية . كما كان لها تأثير عظيم على لغات غرب إفريقية مثل "الهوسا" ولغات شرق أفريقيا مثل السواحيلية .

الفصحى وتجاور اللغات:

وتعرضت العربية الفصحى أيضاً للتأثر بقانون تجاور اللغات، والذي لعب دوراً هاماً في تطورها على قاعدة احتكاك اللغات المتجاورة الذي يؤدي إلى تداخلها . فقد وجد اللغويون العرب هذه الحقيقة مبكراً، حين تحدثوا عن فساد الفصحى، بسبب مجاورتها للأعاجم، أو لأهل السواحل الذين يخالطون الأعاجم في الأسواق . وذكر الفارابي ذلك فقال :" لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف

بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم . فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر من القبط . ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرؤون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا النمر، فإنهم بالجزيرة مجاورين لليونانية . ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس . ولا من عبد القيس لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند وللحبشة" (٣١) . كذلك لم تأخذ العرب بلغة من أهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز، لأنهم خالطوا غيرهم من الأمم مما عرض لغتهم للفساد.

ولقد تأثرت لغة النقوش التي تعود لعرب الأنباط في شمالي الجزيرة العربية بالآرامية، وذلك لمحاورتهم الآراميين وأخذهم الكتابة عنهم . وقد بلغ ذلك حداً اعتقد معه البعض أن هذه النقوش آرامية تأثرت بلغة الكلام التي كانت لا تزال عربية . والواقع أن النبطية، مثل أية لغة تقطن على الحدود مع مواطن اللغات الأخرى، هي لهجة مختلطة، امتزجت فيها العناصر اللغوية لكل من العربية والآرامية، سواء فيما يتعلق بلغة الحديث أو بلغة الكتابة، نتيجة للتحاور المستمر بين العرب والآراميين لعدة قرون . وقد أورد "كانتينو " نقشاً نبطياً على الحجر، يؤيد ما ذهبنا إليه :

" ته قبرو صنعه كعبو بر حارثت لرقوش برت عبد منوتو أمه وهي هلكت في الحجرو سنه مائة وستين وترين بيرح تموز، ولعن مرى علما من يشنأ القبردا، ومن يفتحه حاشى ولده، ولعدم من يغيردا علا منه " (٣٢) .

الآرامية / العربية :

ونحن نلاحظ التأثيرات الآرامية على العربية النبطية في الحقول الأربعة التالية :

١ - في الحقل الصوتي ظهرت الآرامية في الكلمات : بر ، برت ، ترين ، وهي تعني في العربية : ابن، بنت ، اثنين . أمّا الكلمات : ستين ، سنة ، يغير ، فيمكن قراءتها بالعربية، كما وجدت في النص، وبالآرامية : شتين، شنة، يعير، بالعين المهملة .

٢ - في الحقل المورفولوجي، نرى أن اسم الإشارة الارامي "دا" في "القبردا"، هو اشم إشارة للمؤنث والمذكر منه "دنا" . وقد استعمل القبر مؤنثاً في النص، كما استعمل مذكراً في نصوص نبطية أخرى .

٣ - في الحقل النحوي أو التركيبي، نجد إلى جانب الصبغة العربية الغالبة كما في : قبر، صنعه، كعبو، هلكت، في، الحجرو ، الخ .... النموذج الآرامي في : مرى ، علما .

٤ - وفي الحقل اللغوي، نجد بعض الألفاظ الخاصة بالآرامية مثل: يرح وتعني شهر وتموز تعين يوليو. أما الكلمات المنتهية بالواو مثل : قبرو، كعبو، فنوتو، الحجرو، فإنها علامات للوقف، وذهب المستشرق ف. فيشر، إلى أن استعمال الشين بدلاً من الكاف، والتي هي ضمير المخاطبة المؤنثة (الكشكشة) قد استعارتها العربية من الجنوبية، وبالتالي فهي من آثار تجاور اللغتين .

فعندما حلت العربية محل اللغات القديمة، داخل الجزيرة وخارجها، فإنها تأثرت حكماً بتلك اللغات القديمة. وقد ظهر ذلك في اللهجات العربية لدى هؤلاء الذين غادروا لغاتهم القديمة من أجل الاستعراب. أما مظاهر الاستعراب فكان منها: الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية . إذ اصطحب المستعربون هذه المظاهر من لغاتهم القديمة، إلى العربية التي استعربوها لساناً جديداً لهم . أما أصحاب اللسان الثنائي اللغة، فقد كانوا يتأثرون حتماً في نطقهم بلغتهم الأم، وهو ما يعرف "بالتداخل اللغوي – Lingue interference " مصطلحاً، أو بالاستعراب الجزئي، تمييزاً له عن الاستعراب التام .

ظاهرة الاستعراب :

ويبدو أن كثيراً من علماء العربية الأوائل، كانوا قد استأنوا عند مظاهر الاستعراب التي ظهرت في العربية الفصحى منذ زمن مبكر . إذ وجدوا من المستعربين من يذكر المؤنث، ويؤنث المذكر . ومنهم من لا يستطيع تطبيق النظام اللغوي في العربية الفصحى، صرفياً كان أو غيره بسبب العجمة. ومنهم من كان يستبدل بالحروف العربية التي لا توجد في لغته الأصلية، حروفاً أخر . فمن كان يحدث له ذلك اعتبر ألكن، فعيب عليه باللكنة، ويرى الجاحظ أن السندي يجعل الجيم زاياً وأن النبطي يجعل الزاي سنياً والعين همزة وان الصقلبي يجعل الذال المعجمة دالاً . وعّدو من الرجال الذين ظهرت اللكنة في لسانهم : صهيب الرومي وزياد الأعجم وسحيم عبد بني الحسحاس وعبيد الله بن زياد وأبا مسلم الخرساني [٣٣] . أما الأصمعي فقال : " وكان سيبويه ألكن " [٣٤] . فهؤلاء ظهرت آثار الاستعراب في لسانهم من الجوانب الصرفية والصوتية والنحوية، أمّا

الجواليقي فيتحدث أيضاً عن انتقال كثير من الألفاظ ذات الأصل الأجنبي سريانياً كان أم فارسياً أم غيرهما، إلى عربية المستعربين.

ومن أقدم النماذج التي تدل على الاستعراب في مظهره الصوتي، ما يروى عن سحيم الحبشي، من أنه كان يبدل الشين سيناً، نظراً لخلو لغته الحبشية من السين في الفترة السابقة لاستعرابه. يقول الجاحظ متحدثاً عن اللكن :" ومنهم سحيم عبد بني الحسحاس قال له عمر وأنشد قصيدته :

عميرة ودّع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

" لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك فقال له : ما سعرت. يريد ما شعرت " أما المبرد فقال " وكان عبد بني الحسحاس يرتضخ لكنه حبشية " [٣٥].

أما الاستعراب في مظهره الصرفي (المورنولوجي)، فقد أورده اللغويون العرب في حالات عديدة، استخدمت فيها الكاف ضميراً متصلاً للرفع في حالتي الخطاب والتكلم. وكان تفسيرهم لذلك نوع من الإبدال في مثل ضَرَبْكُ بدل ضَرَبْتُ وضَرَبْكَ بدل ضَرَبْتَ. ويحكي ابن جني " وكان سحيم إذا أنشد شعراً جيداً قال أحسنْكَ والله. يريد أحسنْتَ [٣٦]. أما القلقشندي فقال :" وربما أبدلت "حمير"" التاء أيضاً كافاً فيقولون في قلت : قلك" [٣٧].

وفي مظهر الاستعراب نحوياً، ما يطلق عليه النحويون العرب، إعراب المثنى بالألف في جميع أحواله رفعاً ونصباً وجراً. ومن الشواهد الشعرية :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساغاً (لناباه) الشجاع لصمما [٣٨]

وقول الآخر :

تزود منَّا بين (اذناه) ضربة دعته إلى هابي التراب عقيمُ [٣٩]

وقوله تعالى : ﴿إن هذان لساحران﴾

أما الاستعراب في مظهره المعجمي، فهو يتمثل في الألفاظ الآرامية عند أهل الشام والألفاظ الفارسية عند أهل العراق والألفاظ الخاصة بالعربية الجنوبية. وقد ذكر ابن فارس ألفاظاً منسوبة للقحطانيين لها ما يقابلها في العربية الفصحى مثل : القلُّوب : الذئب والشنائر : الأصابع. والحلم : الصديق [٤٠]. ومن الآرامية قول إبراهيم الموصلي :

ما زلت أرهن أثوابي واشربها صفراء قد عتقت في الدن حولين

فقال :" إزل بشين" حين ودّعني وقد –لعمرك - زلنا عنه بالشين

وقوله : إزل بشين : عبارة آرمية شرحها أبو الفرج الأصفهاني فقال: معناها :" إمض بسلام"[٤١].

إلى ذلك يمكن الحديث أيضاً عن استعمال المستعربين لألفاظ عربية في غير استعمالاتها التي ألفها العرب الخلّص . وقد استشهد الجاحظ على ذلك بقول عبيد الله بن زياد الذي قال :" افتحوا سيوفكم" يريد "سلّوا سيوفكم" . كما قال أيضاً : اجلس على إست الأرض" . واعتبر ذلك لحناً في العربية [٤٢] .

المقاييس اللغوية في السياقات الاجتماعية :

لا أحسب أن أحداً يماري، في أن اللغويين العرب القدماء، قد وقفوا جهوداً عظيمة على دراسة المقاييس اللغوية العربية في سياقاتها الاجتماعية . وقد أحسنوا تصويرها في جميع مظاهرها وبيئاتها وأشكالها، الأكثر والكثير والأقل والنادر والشاذ، على ما هنالك من مستويات . وقد كانت لهم معاجم ترتب على حسب الألفاظ، وأخرى ترتب على حسب المعاني أو الموضوعات . وقاموا بجمع ما عرفته بعض القبائل من ألفاظ وتعبيرات وفروق بين الألفاظ، فألفوا كتباً في موضوعات الحياة البدوية المختلفة، ووضعوا معاجم تهدف إلى ترتيب المعاني بطريقة خاصة، وذكروا الألفاظ التي تقال للتعبير في كل معنى [٤٣].

لقد أدرك المعجميون العرب مبكراً، ضرورة رصد اللغة العربية في سياقاتها الاجتماعية . فتحدثوا عن تنوع استعمالاتها، وتعدد أبنيتها، قياساً إلى وظيفتها أو إلى الطبقة التي تستعملها . وقد وضعوا معاجمهم على هذا الأساس، بحيث شكّلت رصيداً لا يستهان به من حيث الكم والنوع :

أولاً : لبيان المعاني والدلالات اللغوية القائمة على ميدان التجربة عند المتكلمين في محيط اجتماعي معين . إذ وجدوا أن ذلك يساعدهم على بيات الميول والحاجات التي يتوخونها حين يتحدثون . فالتعبير عن الأغراض بحسب اللغويين العرب، يجب أن يستنبط في الأساس، من مجموع العلاقات الاجتماعية المعاشة .

ثانياً : لبيان المفهوم الذي تفيده الكلمة المعينة في جميع سياقاتها واستعمالاتها . وهذا ما دعا "هاي وود – Hay wood " ، وهو أحد كبار اللغويين الأوروبيين إلى القول:" الحقيقة إن العرب في مجال المعاجم، يحتلون مكان المركز، سواء في الزمان أو في المكان، بالنسبة للعالم القديم والحديث، وبالنسبة للشرق والغرب " (٤٤) .

كذلك حاول أصحاب المعاجم العربية الأوائل، بيان أثر الاستعمال في حياة الكلمة وتعيين دلالاتها وتحديد معانيها ، وفق المجموعة الناطقة بها . دون أن ينسوا بيان قربها أو بعدها من اللغة المشتركة ، بما عرف عنها من نظام في الأصوات والبنى والتراكيب . علماً أن فريقاً منهم قام برصد عيوب المستويات اللغوية بالقياس إلى مستوى اللغة المشتركة . إذ العامية عرفت في أيام الخليل بن أحمد ، ولكن جهوداً عظيمة بذلت، كي تسود العربية الفصيحة ، فتصبح هذه اللغة التي شرفت بالقرآن الكريم، لغة عامة يعرفها كل العرب، ولا أثر فيها للغات الخاصة التي كانت مستعملة عند بعض القبائل (٤٥) .

إن الكسائي، وهو رأس مدرسة الكوفة (ت : ١٨٩ هـ)، كان من اللغويين العرب الأوائل الذين باشروا دراسة العربية في سياقاتها الاجتماعية ، فكان أن وضع كتاباً في اللحن، ضمنه مجموعة من المفردات التي شاعت في زمانه، والتي كانت تناقض المأثور عن لغة فصحاء البادية . كذلك فعل سيبويه حين علّل بعض أسباب اللحن . أما ابن السكيت (ت : ٢٤٤ هـ)، فقد وضع كتابه" إصلاح المنطق " ، جمع فيه الكثير مما يغلط فيه العامة ، إن على المستويات الصوتية أو الصرفية ، أو مما يضعونه في غير موضعه من الكلام (٤٦) .

كذلك عمل ثعلب على وضع معجم الفصيح، لمن أراد تعلم الفصحى في المأثور البدوي القديم . كما عمل الجاحظ في كتابه الذائع :" البيان والتبيين" على وضع باب جعله تحت عنوان :" من اللحانين البلغاء"، ذكر فيه جملة عظيمة من لحون البلغاء العرب القدماء . أمّا ابن جني الذي صنّف كتاب الخصائص، فقد خصص فيه باباً معروفاً سمّاه "سقطات العلماء" . وهناك "لحن عامة الأندلس" للزبيدي الإشبيلي (ت : ٣٧٩ هـ) وكتاب "تقويم اللسان" لابن الجوزي (ت : ٥٩٧ هـ) . وكتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان في لحن عامة وخاصة صقلية لابن مكي الصقلي، ذكر فيه باباً بعنوان :" ما العامة فيه على الصواب والخاصة على خطأ " (٤٧) .

ضمّن الصقلي كتابه ما كان يجري على ألسنة المتخصصين من ألفاظ، عدّت من اللحون وخصوصاً منهم طبقة القراء وأهل الحديث وأهل الفقه . كذلك ذكر ما جرت به ألسنة أصحاب الوثائق وكتاب العقود وأهل البيع والشراء، وأصحاب الإجازات. وما إليها من العقود التي تسجل المعاملات بين الناس. ناهيك عما كانت تجري به ألسنة الأطباء من مصطلحات وألفاظ وأسماء عقاقير، وما كانوا يطلقونه من مسميات على الأمراض والعوارض الصحية والعاهات البدنية. وهذا ما جعل كتابه أصيلاً في اللهجات والمستويات اللغوية التي كانت تسود أوساط المتعلمين في صقلية، وأصحاب المهن المختلفة وكتاب الوثائق، وأهل الفقه والشرع والفتيا. مما يبلور لنا جملة الأنساق اللغوية في سياقاتها الاجتماعية، في ذلك العصر .

ظاهرة اللحن والتحريف:

وبرأينا إن ما ينظر إليه على أنه لحن أو تحريف في العربية، ليس إلا صورة من صور التطور والتغيير اللذين يلحقان باللغة عبر الأزمنة . ومن أبرز من أشار إلى ذلك الجاحظ نفسه، حين جعل لكل شخصية من بخلائه، ألفاظها وتعابيرها ومنطقها وصيغها المطابقة لما هي عليه في الزمان . فهو يقول : وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس انقسموا في طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف والثقيل . وكله عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا " (٤٨) . وحسبنا أن الجاحظ هو أول من أشار إلى "لغة الأطفال" . إذ يذكر أن الأطفال يرمزون إلى الكلبة مثلاً بلفظ "واواو" والشاة بـ "ماه" . قال : والصبيان هم الذين يسمون الشاة "ماه" . كأنهم سمّوها بالذي سمعوه منها حين جهلوا اسمها . وقيل لصبي يلعب على بابهم : من أبوك يا غلام ؟ وكان اسم أبيه كلباً، فقال "وَوْوَوْ" (٤٩) .

المستويات المهنية :

إن أهم ما يلمح إليه الجاحظ في أخباره، هو أن المستويات المهنية التي يزاولها المتكلمون، إنما تمثل ألواناً من العلاقات بين اللغة والمجتمع . إذ الكلام الذي يستعمله أصحاب المهن، إنما يدل على عمل صاحبه وعلى طبقته الاجتماعية، وإن اختلفت نسبة الدلالة باختلاف الأفراد والظروف والعصور . ومن واجب اللغوي اليوم أن يعرّف اللغة بأنساقها الاجتماعية، وأن يظهر الصلة بين الكلام ومستواه الاجتماعي، بحيث يتضح له

الارتباط الفعلي والواقعي بين اللغة وأهل المجتمع الذين يتحدثون بها ، ويبرهن على أوجهه الكثيرة التي لا تقع تحت حصر .

اللغة وحياة الناس :

برأينا أن الوصف اللساني للدلالات اللغوية اليوم، إنما ينهض على ميدان التجربة لدى المتكلمين في المحيط الاجتماعي المعين بدقة . ويظهر في سلوك المتكلمين عادة، مراكز اهتمام معينة لألفاظ مخصوصة، تستنبط عادة من مجموعة العلاقات المتصلة بالحياة اليومية التي يحياها الناس . ومركز الاهتمام هذا ، إنما يرتبط بالاختيار الذي يتوخاه المتكلمون . ولهذا نراه يختلف من مجموعة إلى مجموعة أخرى .

الحاجة الاجتماعية والرصيد اللغوي :

فكل حاجة اجتماعية ، مهما كانت ضئيلة للغاية ، إنما يقابلها ردّ فعلٍ في الرصيد اللغوي، بما يعمل على تجلي بعض الألفاظ وتخيرها للتعبير بها دون سواها ، عن دلالات خاصة بتلك الحاجة. ألا نرى أن كلمات من نحوى نقابة أو جوع أو كفاح أو طبقية أو عولمة أو ثورة، تؤكد كل منها سياقاً اجتماعياً معيناً ، يسير فيه الجماعة، بما يجعل هناك اختلافاً بين السياقات الكلامية من لغة إلى أخرى، ومن استعمال اجتماعي إلى آخر . ولهذا ربما ، لا تفيد كلمة معينة عند جماعة معينة، ما قد تفيده عند جماعة أخرى، مما يقتضي من الباحث العمل على تحديد السياقات لأجل دراسة الأنساق اللغوية، في العربية خصوصاً .

الحواشي

(١) تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين. جورج مونين . ترجمة د. بدر الدين القاسم. دمشق ١٩٧٢ :ص ١٥٢ .

(٢) **Enegelopedie Larousse, Jean-Baptiste Moreellesi : La Linguistique par un nombre de professeurs universities. 1977**

(٣) تاريخ علم اللغة : المرجع أعلاه : ص ١٥٣ .

(٤) مفاتيح الألسنية . جورج مونين . ترجمة الطيب البكّوش . تونس ١٩٨١ : ص ٣٢ .

(٥) لغات البشر : ماريو باي . ترجمة د. صلاح العربي . القاهرة ١٩٧٠ : ص ٨٢ .

(٦) نحو مدخل عملي لدراسة اللهجات العربية المعاصرة . د. حسن شقير عبد الجود. من بحوث الندوة العالمية الثالثة للسانيات. تونس ١٩٨٥ : ص ٢ .

(٧) اللغة والأسلوب . عدنان بن ذريل . دمشق ١٩٨٠ : ص ٤٧ .

(٨) لغات البشر : ص ١٢ .

(٨) الماركسية وقضايا علم اللغة . ستالين . ترجمة حنّا عبود . دمشق ١٩٥٠ : ص ٩ .

(٩) الماركسية وقضايا علم اللغة . ستالين . ترجمة حنّا عبود . دمشق ١٩٥٠ : ص ٩ .

(١٠) المرجع نفسه : ص ١٠ .

(١١) اللغة والمجتمع : د. محمود السعران . القاهرة ١٩٦٣ : ص ١١ .

(١٢) الألسنية . د. ميشال زكريا . المؤسسة الجامعية . بيروت ١٩٨٤ : ص ٨٥ .

(١٣) الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية.د. نهاد الموسى. الندوة العالمية الثالثة للسافيات. المرجع أعلاه : ص ٢ .

(١٤) **Social Antropology and Language : P 140**

(١٥) القرآن الكريم . سورة الروم : آية ٢٢ .

(١٦) اللغة : فندريس . ترجمة محمد القصاص وعبد الحميد الدواخلي . بيروت ١٩٩٥ : ص ٣٤٨ .

(١٧) الإمام السيوطي : المزهر . دار المعرفة . بيروت ١٩٩٧ : ٣٠/١ .

(١٨) الجاحظ : الحيوان تحقيق : محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٧٥ : ٢٦٠/٤ .

(١٩) ابن جني : الخصائص . دار المعرفة . بيروت ١٩٨٥ : ٣٨٦/١ . وابنا نزار ربيعة ومضر، وهما قبيلان .

(٢٠) نولدكه : اللغات السامية . ترجمة رمضان عبد التواب . دار الرسالة الإسلامية . بيروت ١٩٩١ : ص ٩١ .

(٢١) موسكاتي : الحضارات السامية ١٩٦٤ : ص ١٤ .

(٢٢) بروكلمان : فقه اللغات السامية . بيروت ١٩٦٥ : ص ٣٢ .

(٢٣) ابن جني : الخصائص : ٢٨/٢ .

(٢٤) اللغة : فندريس : ص ١١٥ .

(٢٥) ابن جني : الخصائص : ٣٨٦/١ .

(٢٦) ابن خلدون : المقدمة . دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٧٩ : ص ٥٥٧ .

(٢٧) ابن منظور : لسان العرب . (مادة حمر) .

(٢٨) الصاحبي : أحمد بن فارس . الدار العلمية . بيروت ١٩٨٥ : ص ٣٨ .

(٢٩) موسكاتي : الحضارات السامية . القاهرة ١٩٩٠ : ص ١٩٢ .

(٣٠) الجاحظ : البيان والتبيين . دار الهلال . بيروت ١٩٩٠ : ١٩/١ .

(٣١) السيوطي : المزهر . دار المعرفة . بيروت ١٩٩١ : ٢١٢/١ .

(٣٢) **J.Cantineau, La Nabateen II, P 38 . Paris 1930 .**

(٣٣) الجاحظ : البيان والتبيين : ٤٠/١ و ٧٠ و ٧٣ و ١٦١ .

(٣٤) الجاحظ : نفسه : ٧١/١ .

(٣٥) المبرد . الكامل في اللغة والأدب . دار الجيل . بيروت ١٩٩٧ : ٣٧٢/١ .

(٣٦) ابن جني : سر صناعة الأعراب . تحقيق حسن هنداوي . دمشق ١٩٢٥ : ص ٢٠٣ .

(٣٧) القلقشندي : صبح الأعشى . دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٧٥ : ١٠٦/١ .

(٣٨) الفراء : معاني القرآن . دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٧٥ : ١٩٤/٢ .

(٣٩) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن . دار المعرفة . بيروت ١٩٨٠ : ص ٥٤ .

(٤٠) ابن فارس : الصاحبي . دار المعرفة . بيروت ١٩٧٥ : ص ٤٠ .

(٤١) محمد ابراهيم العفيفي : الظواهر اللغوية في الشعر العربي . القاهرة ١٩٨٤ : ص ١٨٥ .

(٤٢) الجاحظ : البيان والتبيين : ٢٠٢/٢ .

(٤٣) ابن السكيت : كتاب الألفاظ : ٢١٥/١ . دار المعرفة . بيروت ١٩٧٥ .

(٤٤) د. أحمد مختار عمر : اللغة العربية بين الموضوع والأداة . مجلة فصول . المجلد الرابع العدد الثالث . عام ١٩٨٤ : ص ١٤٢ .

(٤٥) د. إبراهيم السامراتي : دراسات في اللغة . مطبعة العاني . بغداد ١٩٦١ : ص ٢٧ .

(٤٦) ابن السكيت : إصلاح المنطق . دار المعارف بمصر ١٩٤٩ : ٢٥١/٢ .

(٤٧) ابن مكي الصقلي : تثقيف اللسان وتلقيح الجنان . تحقيق د. عبد العزيز مطر . القاهرة ١٩٦٦ : ص ٢٤٢ .

(٤٨) الجاحظ : البيان والتبيين : ١٤٤/١ .

(٤٩) الجاحظ : الحيوان : ٢٨٨/٥ .